



العقل العربي 68

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل السادس عشر التحليل النفسي للتغريب

5. خمسة هواجس مهيمنة

يلي هاجس التوجه التقليدي، ويرتبط معه بشدة: التوجه العائلي. ويعني هذا التوجه: الموقع المركزي للعائلة في التنظيم الاجتماعي. وأولويتها في سلم الولاء، وتسيدها على الحياة الفردية. وتتصف العائلة العربية التقليدية، كما هو حال العائلة المسلمة في الأجزاء غير العربية من الشرق الأوسط، بستة مميزات، يقوم كل منها بدعم وتقوية هيمنة التوجه العائلي على الحياة العربية: الامتداد، الأبوية، والنسب الأبوي، والتزاوج ضمن النسب الأبوي، وتعدد الزوجات في بعض الأحيان. والعائلة التي تجتمع فيها هذه الميزات فلا محالة ستنبأ مكانة مركزية سيادية على مستوى الحياة الشخصية والاجتماعية.

يدخل التوجه العائلي في صميم العقل العربي بحيث أن البنى الاجتماعية الأكبر تعتبر مجرد امتدادات للعوائل. وهذا الامتداد النسبي، أو ما يدعى بـ«الحمولة» في قرى العديد من الدول العربية، ليس إلا عائلة متعاطمة مكبرة عاش جدها الأكبر قبل ستة أو ثماني أجيال. وعلى نحو مشابه، تعتبر القبيلة بأكملها، وإن كان عديدها بالآلاف، سلالة متحدرة لسلف أسطوري واحد تلقت اسمها منه. وإذا ما أخذنا الأمر على امتداده الأوسع بحسب مفهوم القرابة، فسيكون كل العرب في كافة دولهم أبناء واحد من الجدين الأساسيين، وبتطبيق هذه الآلية العائلية فقط يدعي العرب الإخوة بينهم على المستوى النظري، فتكون كافة الخلافات العربية العربية مجرد «شجارات عائلية».

ويؤدي امتداد مفهوم العائلة من جهة أخرى إلى مشاركة الفرد في كافة التجمعات الاجتماعية الأشمل، دون أن يكون ذلك على المستوى الفردي بل العائلي. ويمكن القول نظرياً

الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

بأن النقابات الحرفية القديمة وغيرها من التجمعات المهنية تعتبر أيضا بمثابة عوائل كبيرة أو قبائل. وهذا ينعكس في الأقوال الشائعة. أضف إلى ذلك أن الأحزاب السياسية. أينما نمت. هي بنى مشابهة من حيث كونها امتدادات لعوائل. وتستند إلى العلاقة العائلية المتبادلة بين «الزعيم» ووكلائه.

ليس من الصعب جدا إدراك أن من لهم مصلحة خاصة في استمرار التوجه العائلي. بمن فيهم جميع الأفراد الذين يحتلون المراكز العليا والمتوسطة في هرم العائلة (الكل ما عدا الشباب والأطفال). يعارضون أي تغيير يعكس صفو العائلة أو يضعفها. وما حصل في الواقع هو أن كافة عناصر التغريب تميل إلى فعل ذلك. فإذا أرسلت الفتاة إلى المدرسة فستكون أقل ميلا لتقبل الزوج الذي يختاره والداها دون نقاش. وإذا ذهب الصبي إلى المدرسة فسيقرب في ذهنه أفكارا خاصة به في ما يتعلق بالعمل الذي يريد ممارسته أو المكان الذي يرغب بالعيش فيه. حتى ما تبدو بأنها جوانب تكنولوجية برتنة فإنها ذات قدرة على الإطلاق التدريجي والسري لتفاعل تسلسلي يتناول في النهاية القيم المقدسة للعائلة والهواجس المهيمنة الأخرى. وعلى الرغم من أن الآليات التي أشرنا إليها لا يمكن الادعاء بأنها قابلة للملاحظة المباشرة. فإن كلا من التوجه التقليدي والتوجه العائلي يخلقان حالة ذهنية تتجه في العموم. ومن حيث المبدأ. إلى التوجس من الابتكارات التي تأتي من الخارج.

هنالك قيمة أخرى على علاقة بالتوجه العائلي تعرضت لتحدي الغرب. وهي العلاقات الشخصية. إن الفرد الذي ينشأ في مجتمع صغير يسيطر عليه التوجه العائلي وتكون العائلة فيه الإطار الفعلي للحياة يعتاد على تكوين العلاقات مع أي شخص بناء على أساس شخصي مهيمن: فكل من يلتقيهم في خضم الحياة اليومية يعرفهم شخصيا. وفي معظم الأحيان يمتون إليه بصلة قرابة من درجة ما؛ وإن هو قابل من لا يعرفه فستكون تلك مناسبة غير عادية تماما. وإن هي حدثت. فسيقضي الطرفان وقتا طويلا في سرد أسلافهم وأقاربهم على أمل إيجاد صلة تربط بينهما في موضع ما. وعندها فحسب يخوضان في

الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

الموضوع الذي أتى بهذا التغريب إلى القرية أو القبيلة. ولا ينحصر التواصل في البلدة العربية التقليدية بالمعارف إلى الدرجة نفسها؛ ولكن حتى في مثل هذا الموضع. وبالأخص في البلدات القديمة ذات البنية السكانية المقسمة بدقة. فإن الفرد لا يتعامل بتلقائية إلا ضمن إطار العلاقات الشخصية.

ثمة ميزة مكملة لهذا النمط من التنظيم الاجتماعي وهي وجود تفاعل اجتماعي مكثف بين الفرد وباقي أفراد جماعته. وكما تقول سانيا حمادي:

الكل يتدخل في حياة الفرد لتوجيهها أو تضليلها. وليس بإمكانه أن يتخذ قرارا دون استشارة أقربائه وكبار أعضاء الجماعة التي ينتمي إليها... إنه يعيش في منظمة متماسكة حيث يعلم كل فرد شؤون الآخر. وكل ما يقوله أو يفعله يخضع لرقابة جماعته. وهو يقع دائما عرضة لمحاكمة قيمية تتناول كافة أقواله وأفعاله.¹

يبدو لي أن ما يحصل في المجتمع التقليدي من تواصل اجتماعي تهيمن عليه العلاقات الشخصية والضغط يشكل أحد المصادر التي تغذي ميل العرب إلى «شخصنة المشاكل». وهي صفة ناقشها عدد من دارسي المجتمع العربي. فقد علق المستعرب السويسري هانز توتش عليها قائلاً:

تصل شخصنة المشاكل في الدول العربية إلى حد يجعل حتى الصعوبات المادية والتقنية التي ترافق تبني جوانب من الحياة الغربية أمرا ناتجة من نية خبيثة ويؤدي إلى شعور «بالإهانة». إن العرب. مع قبولهم بالقانون الغربي والمؤسسات والملابس والطعام ووسائل المواصلات الغربية. وبالأحرى. الحياة بكافة أوجهها. وتأثرهم أكثر فأكثر بالتكنولوجيا والعلوم الغربية. لا شك في أنهم يتعرضون إلى «إهانات» جديدة تعتبر في مكان آخر صعوبات طبيعية ناتجة عن النمو. فتزول بذلك. عندما يواجه العربي عقبة في طريقه فإنه يتخيل عدوا يقف له بالمرصاد. إن الشعوب الضعيفة

(1) سانيا حمادي: مزاج العرب وشخصيتهم؛ ص32.

الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

ذات «الأنا» الضعيفة تميل إلى تفسير الصعوبات التي تعترضها في الحياة على أنها إهانات وتنشغل «بمحاكمات لا تنتهي» أو ترمي نفسها في أحضان «الحركات السياسية المتطرفة». وإذا ما خسر أحدهم في الانتخابات. وهي مخاطرة ينبغي على كل سياسي أن يتقبلها في الأنظمة الديمقراطية. فإنها تبدو إهانة شديدة إلى درجة تجعل الخاسر مدفوعاً دون رادع إلى حمل السلاح على الفائز بالانتخابات والحكومة الشرعية. أو يتحالف مع من يعده بالنجاح في الانتخابات القادمة...¹

قد يكون هنالك مبالغة في ما سبق. لكن مما لا شك فيه هو أن ذلك يشكل جزءاً من الحقيقة في ملاحظة أن العرب «يشعرون بوجود الأعداء والإهانات والانتصارات في ما يتسامح معه الغربي باعتباره صعوبات مادية موضوعية. وفي جميع الأحيان. غير شخصية»². وما من شك في أن العرب. بما لهم إدراك وتحسس تقليدي تجاه القضايا الشخصية. أصبحوا تدريجياً على وعي كامل بالتغيرات الحقيقية التي تحدث لطبيعة التواصل الاجتماعي عندما يبدأ التغريب بالتغلغل في صفوفهم. وعندما يحل التواصل غير الشخصي محل التواصل الشخصي. وعندما يحدث ذلك بعد تفكك أو إضعاف العائلة الممتدة الأبوية. فإنه يعتبر عاملاً يصب في النظرة السلبية تجاه الغرب.

كما أن رؤية للغرب للمشاكل والأحداث التي تؤثر على الأفراد لا تتشكل. في جزء منها على الأقل. نتيجة ظروف موضوعية الغاية منها جعل العربي يحمل شعوراً أفضل تجاه هزائمه أو سعادة أكبر بنجاحاته. بل على العكس؛ فما دام يستطيع عزو هذه الأحداث إلى عوامل شخصية. فإنه ينتقل إلى مجال ليس غريباً عليه البتة. إن اقتحام العوامل الموضوعية غير الشخصية لعالم الفرد العربي يجعله يشعر بالعجز في مهمة التغلب على الهزيمة. ويقلل رضاه بالنجاح الذي لا يبدو بعدها ناتجاً عن قدرته على هزيمة أئداده الشخصيين.

(1) هانز توتش (Hans E. Tutsch): الشرق الأدنى في أزمة: ص 141-142.

(2) فون غرونباوم (Von Grunebaum): الإسلام الحديث: ص 176.

الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

يعتبر فساد التقاليد الجنسية عند الشباب، وبالأخص عند الفتيات، واحداً من أكثر الشكاوى تردداً ضد التغريب عند العرب. وكما لاحظنا، فإن هذه منطقة حساسة من مجمل أخلاقيات العالم العربي التي تستند جميعها إلى الدين بقوة. لذلك، فإن أي تغيير يقدمه الغرب في المجال الجنسي، ودون التفكير في أنه من الممنوعات الطبيعية، ينتهك جانبا جوهريا في حياة المسلم، وهو الدين. وهذا دون التطرق إلى ما يحمله العربي عن المرأة من معنى آخر أكثر قدما وعمقا. ومن السهل أن يلاحظ المرء أن أي بدعة متأثرة بالغرب تتدخل في التقاليد الجنسية العربية ستدفع بالأمور إلى ثورة تجتاح الأخلاقيات العربية ونظرتها إلى الفضيلة.

بالإضافة إلى ما سبق، كان هنالك هاجس مهم آخر تعرض لتحدي الغرب، وهو: الفولكلور والفنون والحرف الشعبية. أما في أيامنا هذه فهنالك القليل من العرب ممن يتحسرون على نهاية هذه التعبيرات المبدعة للروح العربية الشعبية. لأن عدد من يعرفها وبقيمها قد انخفض خلال العقود القليلة الماضية. إن المظاهر المختلفة للثقافة العربية الشعبية التقليدية (القصص، الشعر، الأمثال، الأقوال، الألغاز، الأغاني، الموسيقى)، والأشكال البصرية المتنوعة للفنون الشعبية (النسيج، تزيين كافة الأشياء بالأنماط الزخرفية، صناعة السلال، صناعة الخزف، صياغة المجوهرات) كانت الوسط الذي يستخدمه الحس الجمالي المحلي للتعبير عن نفسه، كما أغنت حياة الناس في كل مكان، سواء أكانوا فقراء أم أغنياء. ولكن معظم هذه الأمور فقدت في أيامنا هذه دون رجعة؛ إذ أن الأدوات والأشياء التقليدية التي جرت العادة على تزيينها بأنماط قديمة جميلة استعيض عنها، حتى في القرى البعيدة وخيام البدو، ببدايل تنتج بأعداد كبيرة في الغرب، أو في مدينة صناعية عربية كبيرة تماشيا مع النموذج الأوروبي. ولا يبدو أن هنالك الآن من يبكي للحقيقة التي تقول بأن هذه العملية قد أنهت، أو ستنتهي في المستقبل القريب، الفنون والحرف التي مضت عليها القرون بشكل نهائي. إن الراديو يحل محل الموسيقى التي كانت تعزف في كل فرصة ممكنة، وانتشار التعليم حال دون تمكن الذاكرة من اختزان كنوز الأدب الشفهي.

الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

وبينما تختلف درجة المعارضة التي تواجهها معظم أوجه التغريب. فإن هذا الغياب للفنون التي توفر الاكتفاء الجمالي (وربما يتوفر فيها عنصر النفع) لا يبدو بأنه يلقي المبالاة في العالم العربي. وبحسب الظاهر فإن سبب هذه اللامبالاة يكمن في الاعتقاد المشترك بين العرب بأن المنتجات الصناعية الغربية تتفوق على المنتجات الحرفية العربية. وأن تبني الأولى واستخدامها على الشكل الأمثل يعد تقدماً وتحديناً للحياة العربية. إن قضية الافتقار الجمالي في الحياة العربية، والنتيجة عن تلك التطورات. لا يبالي بها العرب. وذلك إن علموا بها أساساً. باعتبارها أثراً جانبياً لا أهمية له في نظرهم.

ومن بين جميع الهواجس المهيمنة في الثقافة العربية. فإن هاجس الإسلام يعد أكثرها رسوخاً في النفسية العربية ويواجه التهديد الأصغر أو لا يواجهه. في الحقيقة. أي تهديد على الإطلاق. بأن يحل محله الدين المهيمن على الغرب. لكن الخطر الذي يمثله التغريب للإسلام ذو طبيعة مختلفة. ذلك أن اختراق الثقافة الغربية للبلدان العربية يجلب معه جانباً يقبل الشباب العربي على تبنيه بشدة: الموقف الغربي النمطي من الدين؛ فليس هنالك منهم من يرغب بالتحول إلى الطوائف المسيحية الكثيرة الممثلة بين ظهرانيتهم. لكنهم يتعلمون الارتباط بالإسلام كما يرتبط الغربيون بأديانهم. وهذا يعني. قبل كل شيء. أنهم يتعلمون اعتبار الإسلام بأنه لا يمثل سبيلاً شاملاً للحياة. وإنما هو دين يفرض في نطاق محدد من الحياة واجبات معينة عليهم ويصف لهم العلاقة التي يجب أن تكون لهم مع الرب. وبحسب نظر المسلم المثقل بالتقاليد. يجلب التغريب الانشقاق إلى الحياة العربية. والتي كانت في ما قبل وحدة طبيعية إسلامية شاملة؛ أما الآن فقد تحولت إلى مسلمة في جزء منها. وعلمانية في جزئها الآخر. وبالرغم من أن هذا الانشقاق خطيئة بحد ذاته. لأنه يفصل جزءاً من حياة الإنسان عن التوجيه الإلهي. فإن الأسوأ يتمثل في التطور الذي لا محالة من أنه يتلو ذلك ويقود إلى توسع مستمر للنطاق العلماني على حساب مثيله الديني. وفي نهاية المطاف. كما يرى المسلم التقليدي. يتكرر ما حدث في الغرب:

الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

الخضوع الكامل لمسعى الإنسان نحو الأهداف المادية. يرافقه ابتعاد كامل عن الدين وتعاليمه الأخلاقية.

ويقترب من هذه الفكرة ما يصادفه المرء دائما من اعتقاد بأن العرب، بسبب دينهم الإسلامي، «روحانيون». بينما الغرب غير المتدين مادي وعديم الأخلاق. إن فكرة الاعتقاد بـ«روحانية» العالم العربي تعرضت للانتقاد الدائم، حتى أن المفكرين العرب يجدون فيها فكرة سخيفة. وكان عدد من الكتاب الشباب العرب قد اتخذوا قرارا بتبني ونشر فكرة، كما عبر عنها الكاتب خالد محمد خالد، تقول بأن «الغاية من وجود الشرق أن يكون مصدرا للروحانيات: وأنه ينبغي أن يبقى كذلك وليس العكس؛ وأن استيراد المفاهيم المادية الغربية خطأ ليس بمستوى ماضي الشرق وتقاليد العظيمة». وهو اعتقاد يقضي عليه خالد بسؤال وجيز ساخر: ماذا عن المنجزات التكنولوجية للغرب؟¹

إن الخوف من احتمالية توجه العالم الإسلامي باتجاه المادية الغربية الخبيثة عبر عنه أيضا فضل الرحمان، وهو فقيه مسلم معاصر تلقى تعليما غربيا ويعمل مديرا لمعهد الأبحاث الإسلامية التابع للحكومة الباكستانية في كراتشي: حيث يقول:

المسلمون روحانيون بالأساس والجوهر بينما الغرب ذو مادية صافية، وكل ما على الشرق فعله في سبيل أن يتطور هو أن يستعير المهارات التكنولوجية (المادية) الغربية، ومع يملكه من روحانية، ستكون الأمور على ما يرام في النهاية.

كان لهذه الحجة عواقب في الشرق أدت إلى «نشوء إحساس زائف بالوقار والتفوق في الدوائر المحافظة». كما كانت مسؤولة عن «نمو، لدى ما يدعى بالطبقات المستغربة، شكل مجرد ومخيف من أشكال المادية يكاد لا يعترف بأي نوع من الحاجات الأخلاقية...» وفي مقابل هذه التطورات، كما في مقابل مادية الشيوعية، كانت «الروحانية القديمة للإسلام غير مؤثرة؛ فما يحدث بشكل عام هو أن المفكر العلماني هو الذي يتحدث عن

(1) خالد محمد خالد: من هنا نبدأ؛ ص43.

الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

(المجتمع الجديد). ولا يتوانى عن استغلال اسم الإسلام كلما سنحت له الفرصة.¹ إن هذه الملاحظات تعبر جيداً عن حال العالم العربي وإن كانت تتناول الوضع في باكستان. وتجسد رد فعل المسلمين المتشددين، وحتى المحافظين المعتدلين منهم، عندما يصطدمون بالتأثير الغربي في النطاق الديني.